﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾﴾ [الرّعد: 10]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

التَّفصيل بعد الإجمال، في بيان علم الله سبحانه؛ لا يداخله تَفاوت، ولا يَعْقُبُه احتمال

لمّا بيَّن ﷻ قدرته العظيمة، وإحاطة علمه بكلِّ شيءٍ، وكانت العادة قاضيةً بتفاوت العلم بالنِّسبة إلى السِّرِّ والجهر؛ أتبع سبحانه ذلك بما ينفي هذا الاحتمال عنه على وجه الشَّرح والبيان؛ لاستواء الغيب والشَّهادة بالنِّسبة إلى علمه ﷻ[1]، فالمناسبة بين الآية والسّابق: أنَّه بيَّن في السّابق عِلمَه في أحوالٍ خفيَّة، ثمَّ بيَّن علمه في كلِّ شيءٍ على سبيل الإجمال، فحسُن بعد ذلك ذِكرُ أحوال النّاس بإسرارِ الأقوال والجهر بها، والاختفاءُ في اللَّيل والانتشار في النَّهار، فهي من باب التَّفصيل بعد الإجمال.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَسَرَّ﴾: السِّرُّ: هو ما تكتمه وتُخفيه عن غيرك، وهو ضدُّ الإعلان، وجَمعُه: أسرار[2].

ومعناه المحوريُّ: إخفاء الشَّيء[3]. وأسررتُ الشَّيء: أخفيتُه، وأسررتُه كذلك: أعلنتُه وأظهرتُه، فهو من الأضداد[4].

2) ﴿مُسْتَخْفٍ﴾: الخفاء: السِّتر والتَّغطية، مِن خَفي الشَّيء خفاء: استتر، وأخفيتُه: كتمتُه، ضدَّ أظهرته[5].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/14، وابن عادل، اللُّباب: 11/258، والبقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/290.
(2) الجوهريّ، الصِّحاح، وابن فارس، المُجمَل، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (سرر).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سرر).
(4) الخليل، العين، والجوهريّ، الصِّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (سرر).
(5) الخليل، العين، والجوهريّ، الصِّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحُفّاظ، وابن منظور، لسان العرب: (خفي).

وأصلُه من الاستتار استتارًا ضعيفًا بحيث يظهر من وراء السّاتر ظهورًا ضعيفًا أيضًا[1]. وخفيتُ الشَّيء كذلك: أظهرتُه، فهو من الأضداد[2].

والاستخفاء: طلب الخفاء، واستخفيتُ من فلان؛ أيْ: توارَيتُ، واستترتُ عنه بحيث لا يراني[3]، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ﴾.

3) ﴿وَسَارِبُۢ﴾: السّارب: هو الذّاهب على وجهه ظاهرًا في الأرض في تحدُّر[4]. وأصله من الاتِّساع والذَّهاب في الأرض[5].

والسِّرْب: القطيع من الظِّباء والشّاء والإبل وغيرهم ممّا يرعى في الأرض؛ لأنَّه ينسرب في الأرض راعيًا[6]. والسَّرْب: الطَّريق، ومنه: سارب؛ أيْ: ذاهب في الطَّريق، الظّاهر فيه[7].

❁ المَعْنى الإجْماليّ:

الجهر والإخفاء والظُّهور والخفاء من الخلق عند الله سواء

يُخبر المولى ﷻ في هذه الآية الكريمة عن حقيقة ثابتة راسخة، وهي إحاطة علمه بجميع خَلْقه، وأنَّه يستوي عنده سبحانه مَن يُخفي القولَ منهم، ويكتمه ممَّن يُعلنه، ويُظهره، ومَن هو مُستترٌ متوارٍ في ظلمته بمعصية اللّه، ومَن هو ظاهرٌ بالنَّهار مُتصرِّف في حوائجه بسرعة[8].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيّ:

بلاغة الاستئناف البيانِّي في الآية:

استواء الخفيّات والظّواهر في علم الله لإحاطته بها، وتقديره إيّاها

موقع الجملة في قولِه تعالى: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ﴾

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المُؤصّل: (خفي).
(2) الجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (خفي).
(3) الجوهريّ، الصّحاح، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (خفي).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (سرب).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سرب).
(6) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (سرب).
(7) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (سرب). وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/99.
(8) ابن جرير، جامع البيان: 13/453، والبغويّ، معالم التّنزيل: 4/299.

استئناف بيانيٌّ؛ لأنَّ مضمونها بمنزلة النَّتيجة لعموم علم الله تعالى بالخفيّات والظَّواهر[1].

ذلك أنَّه لمّا دلَّت الآية السّابقة على كمال عِلْم الله تعالى، وشموله لكلِّ العمومات، وإحاطته بكل الجزئيّات؛ كانت الآية الَّتي أُكِّد فيها هذا المعنى بمنزلة المقدِّمة، وكانت آية ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم﴾ بمنزلة النَّتيجة لِما سبق.

والحاصل أنَّه لمّا كان علم الله محيطًا بدقائق كلِّ شيء، كان مستويًا عنده الظّاهر والخفي، والمُعلَن والمُسَرُّ.

توجيه إعراب ﴿سَوَآءٌ﴾:

في ﴿سَوَآءٌ﴾ وجهان: أحدهما: أنَّه خبر مُقدَّم، و﴿مَّنْ أَسَرَّ﴾، و﴿وَمَن جَهَرَ﴾ هو المبتدأ، وإنَّما لم يُثَنِّ الخبر؛ لأنَّه في الأصل مصدر، وهو ههنا بمعنى مستوٍ، و﴿مِّنكُم﴾ على هذا حالٌ من الضَّمير المُستتر في ﴿سَوَآءٌ﴾؛ لأنَّه بمعنى مُستوٍ.

ليس علم الله بجهر المعلِن بأكمل من علمه بسِرِّ الكاتم، فكلاهما مستويان عند الله

والثّاني: أنَّه مبتدأ، وجاز الابتداء به لوصفه بقوله: ﴿مِّنكُم﴾[2]. ويكون قوله: ﴿مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ﴾ فاعلًا سدَّ مسَدَّ الخبر[3].

الالتفات في قولِه: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم﴾:

عُدِل عن الغيبة المُتَّبعة في الضَّمائر فيما تقدَّم إلى الخطاب هنا في قوله: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم﴾؛ لأمور:

إشعار العباد بمقام المراقبة ليُحسنوا التَّعبُّد، ويخافوا التَّوعُّد

أولًا: أنَّه تعليم يصلُح للمؤمنين والكافرين، وفيها تعريض بتهديد المشركين المتآمرين على النَّبيِّ ﷺ[4].

ثانيًا: ليُشعر المتكلِّمُ الجليل سبحانه الأُناسَ من خلقه بأنَّه معهم،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/99.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/358، وابن عادل، اللُّباب: 11/262.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/99.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/99.

فإن لم يكونوا يرونه؛ فإنَّه يراهم، ويخاطبهم ﷺ، وهذا إشعار لهم بمقام المشاهدة ليتَّجهوا إليه؛ ليحسّوا برقابته، وكمال شهادته[1].

ثالثًا: تحريكُ خواطرِ الأذهانِ؛ فإنَّ للمباغتةِ شأنًا لا يُستهان به في لفتِ انتباه المخاطَب، والالتفات من الغيبةِ إلى خطابِ المُتكلِّم يُغري بالاستماعِ لما سيُقال.

سرُّ استعمال ﴿مَّنْ﴾ الموصوليَّة:

عمومية الموصول تُناسب عموم المخاطَبين

﴿مَّنْ﴾ اسم موصول مُشترك يُستعمَل لمعانٍ عدَّة، فيأتي للمفرد والمُثنّى والجمع المُذكَّر والمُؤنَّث بلفظٍ واحدٍ[2]، والمقصودُ استعمالُ ما يدلُّ على العموم، دون أن يكون هناك احتمالٌ دلاليٌّ بإرادةِ مُعيَّن، فالاسم الموصولُ الظّاهر يُشعرُ بإرادةِ مُعيَّنٍ، فلو قال: (سواءٌ منكم الَّذي أسرَّ القول والذي جهر به)؛ لاحتملَ الكلامُ أن يكونَ المقصودُ بالاسم الموصولِ مُعيَّنًا.

فكأنَّه قيل: سواءٌ منكم اثنان: مُستخفٍ باللَّيل، وساربٌ بالنَّهار، وهذا سرُّ التَّعبير بـ ﴿مَّنْ﴾؛ فهو مشترك بين المفرد والمثنّى والجمع مُذكَّرهم ومؤنَّثهم، وأمّا لو قيل: سواءٌ الَّذي أسرَّ القول والَّذي جهر به؛ فإنْ أريدَ الجنس؛ فالتَّعبيرُ به وبـ ﴿مَّنْ﴾ سواءٌ، لكنَّ الأوَّل نصٌّ، وإنْ أريدَ المعهود حقيقةً أو تقديرًا؛ لزم إيهام خلاف المقصود[3]، وهو غير مقصود.

نكتة التَّعبير بلفظ ﴿أَسَرَّ﴾:

الإسرار أشدُّ كتمانًا من الإخفاء

تدور معاني السِّرِّ حول الخفاء، والكتمان، والغؤور إلى العمق، ويضادُّه الجهر والإعلان[4]. والسِّرُّ إخفاء الشَّيء في النَّفس، ولو اختفى بستر أو وراء جدار لم يكن سرًّا[5].

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3907.
(2) الأزهريّ، التّصريح: 1/154، والسّامرّائيّ، معاني النّحو: 1/123.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/105 - 106، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 6/263.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سرر).
(5) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 63.

أمّا الخفاء؛ فتدور معانيه حول السِّتر، غير أنَّه استتارٌ ضعيف يظهر من وراء السِّتر[1]، وهو من الأضداد، حيث يدلُّ على الظُّهور أيضًا[2].

ومن هنا يظهر سرُّ إيثار التَّعبير بالإسرار دون الخفاء، فهي الأنسب للقول؛ لما فيها من معاني الكتمان، أمّا الخفاء؛ فهو أنسب للأعيان الظّاهرة المُدرَكة بالبصر، والاستتار فيه أضعف من الإسرار، ومن هنا كان الأنسب والأبلغ في التَّعبير عن المبالغة في الكتمان أن يكون بالإسرار دون الإخفاء.

بلاغة الابتداء في قولِه: ﴿مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ﴾:

قُدِّم الإسرار على الجهر؛ لإظهار كمال علمه تعالى، فكأنَّه في التَّعلُّق بالخفيّات أقدم منه بالظَّواهر، وإلّا فنسبته إلى الكلّ سواءٌ[3]، وهذا من باب التَّأكيد والبيان بطريق الأوْلَى، فإذا كان الله سبحانه عالمًا بالسِّرِّ؛ فهو بالعلانية أعلم، والكلُّ عنده سبحانه سواء.

دفْـعُ تـوهُّـمِ الأفهام ممّا قد يخطرُ في الأذهانِ من أوهام

ويلوح منه دفع توهُّم الأفهام، فلو قال: (سواء منكم مَن جهر بالقول ومَن أسرَّ به)؛ لظُنَّ أنَّ تقديمَ العِلْم بالجهر على العِلْم بالسِّرِّ بسبب سهولةِ العلم بالمَجهورِ، قياسًا على المخلوقِ - والعياذ بالله - فقُدِّم ما في النَّظم لدفع مثل هذا الوهم.

نكتةُ التَّعبير بالماضي في الآية:

التَّعبير بالماضي يفيد التَّحقُّق والتَّوكيد؛ لدلالته على وقوع الفعل في زمن المُضيّ، وهذا التَّوكيد مُرادٌ هنا في ﴿مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾؛ إذ الآية تُبيّن أنَّ الله تعالى محيطٌ علمُه بجميع خلقه، وأنَّه سواءٌ منهم مَن أسرَّ قولَه وأخفاه، ومَن جهَر به وأعلنه، فإنَّه سبحانه يسمعه لا يَخفى عليه من ذلك شيء[4].

إحـكـامُ كـتْـمِ الأسـرارِ والجهر بـها عـن إصـرارِ سيّـان في علـمِ الله

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (خفي).
(2) ابن الأنباريّ، الأضداد، ص: 76.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/8.
(4) الزّحيليّ، التّفسير المنير: 13/121.

ولو كانت العبارة: (سواء منكم مَن يُسِرّون القول، ومَن يجهرون به)؛ لانصرف الذِّهن إلى تصوُّر حالة ثابتة لِكلا الفريقيْن، ففريقٌ دأبُه إسرار القول، وفريق دأبُه الجهر به، وسينشأ عن هذا إغفال فريق ثالث يُسِرُّ تارةً، ويجهر تارةً، ولا شكَّ أنَّ هذا غير مُراد، بل المُراد هو إثبات إحاطة علم اللّٰه تعالى بكل فرد، وأنَّ هذا العلم لا يخفى عليه أبدًا أيُّ حال من أحوال هذا الفرد إنْ مُسِرًّا وإنْ مُعلِنًا.

أمّا القول الَّذي يُسَرُّ، والقول الَّذي يُجهَر به، فلِتجدُّد حدوثهما من الفرد الواحد؛ ناسب أنْ يُعبَّر عنه - في مواضع أخرى - بالمضارع، كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ١٩﴾ [النّحل: 19]، وقوله تعالى: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا تُخۡفُونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ٢٥﴾ [النّمل: 25].

وبالإضافةِ لما تقدَّم تلوح نكتةٌ بديعةٌ: وهي أنَّ استعمال صيغة الماضي للإشعارِ بأنَّ هذا المُسِرَّ يُسِرُّ قولَه بإحكامٍ شديدٍ، فهو أسرَّ قولَه في ظنِّه بحيث لا يعلم به أحدٌ، كما أنَّه في المقابل ذَكَر مَن جهر به، بحيث إنَّ المُرادَ بالجهر إطلاقُ القول ليبلغ الجميع، فإنَّه على تباعد هذَيْن الحالَيْن فإنَّ اللّٰه تعالى يعلمُ القولَ الّذي أُحكِم سرُّه، والقولَ الَّذي جُهر به على حدٍّ سواء.

نكتة التَّعبير بلفظ ﴿ٱلۡقَوۡلَ﴾:

شمول القول لكلِّ معنًى منطوقٍ أو نفسيٍّ أو مكتوبٍ، مفهومٍ أو غير ذلك

تدور معاني القول حول النُّطق بالكلام، وهو يَصدُق على أيِّ كلامٍ، مُركَّبًا كان أو غير مركَّب، ويصدق حتَّى على المُسارِّ في النَّفس[1].

ويُلاحظ في معانيه ذِكرُ ألفاظٍ مثل: (النُّطق، والكلام) ممّا يستدعي التَّفريق بينها وبين القول لبيان ما تميَّزت به كلُّ مفردة منها عن غيرها، ثمَّ لبحث السِّرِّ في إيثار التَّعبير هاهنا بالقول دون غيره من مرادفاته.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (قول).

أمّا الفرق بين القول والكلام؛ فهو أنَّ الكلام لا يُطلَق إلّا لجملةٍ مفيدة لفظًا أو تقديرًا، والقول قد يُقال لبعض الجملة، فإذًا كلُّ كلامٍ قولٌ، وليس كلُّ قولٍ كلامًا[1]. والسَّبب في ذلك أنَّ تركيب القول يدلُّ على الخفَّة والسُّهولة، فلذلك يتناول الكلمة الواحدة، أمّا تركيب الكلام؛ فيُفيد التَّأثير، وذلك لا يحصل إلا من الجملة التامَّة[2].

وأمّا الفرق بينهما وبين النُّطق؛ فالنُّطق هو إدارة اللِّسان في الفم بالكلام[3]، وهو الأصوات المُقطَّعة الَّتي يُظهرها اللِّسان، وتعيها الآذان، ولا يكاد يُقال إلّا للإنسان، ولا يُقال لغيره إلّا على سبيل التَّبع[4].

وممّا تنبغي ملاحظته أنَّ الصَّوت في النُّطق أبرز، بينما التَّأثير في الكلام أظهر؛ ولذلك لا يُطلق النُّطق على المكتوب، بل على الملفوظ، ولا يُشترط هذا في الكلام، بل يُلحظ فيه الكَثرة والتَّأثير، أمّا القول؛ فهو أعمُّ منهما، فهو يشملهما معًا، فيُعبَّر به عنهما، ويصدُق القول على الإشارة؛ نحو: «فقال بيده هكذا، فأقامه»[5]، وعلى الصَّوت؛ نحو: «فقال النّاسُ: حَلْ حَلْ، فألَحَّتْ، فقالوا: خَلَأَتِ القَصْواءُ»[6].

ومن هنا تظهر نكتة إيثار القول دون مفرداته، فلمّا كان السياق سياق إثبات إحاطة علم الله تعالى بكل شيء؛ ناسَب أن يُعبَّر بالأعمِّ (أي: القول) ليشمل الأخصَّ من باب أوْلى (أي: النُّطق والكلام ونحوهما).

بلاغةُ الاكتفاءِ بذِكْر القول دون الفعل:

لقد جمعت هذه الآية الكريمة - ﴿مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ - كلَّ أنواع العمل من قول وفعل؛ فالعمل هو شغل الجوارح بمتعلَّقاتها؛ فعمل اللِّسان أنْ يقول، وأنْ يذوق، وعمل الأيدي أنْ تفعل، وعمل الأُذن أنْ تسمع، وعمل القلب هو النيَّة.

والعمل يكون مرَّةً قولًا، ومرَّة فعلًا، وهكذا نجد القول قد أخذ مساحة نصف العمل؛

(1) الرّاغب، المفردات: (قول).
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 1/34.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 542.
(4) الرّاغب، المفردات: (نطق).
(5) صحيح البخاريّ، كتاب التّفسير، سورة الكهف، حديث رقم: (4727): 6/91.
(6) صحيح البخاريّ، كتاب الشّروط، باب الشّروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب، حديث رقم: (2732): 3/193.

الأعمال الظّاهرة نصفٌ للّسان ونصفٌ للجوارح، والقول إذا أُسِرَّ فالعملُ للقلبِ

فالبلاغ عن الله قولٌ، وعمل الجوارح خاضعٌ لمقول القول من الحقّ ﷻ؛ ولذلك أوضح لنا الحقُّ سبحانه أنَّ العمل هو كلُّ فعل مُتعلّق بالجوارح؛ وأخذَ القول شِقًّا بمفرده، وأخذت أفعال الجوارح الشِّقَّ الآخر؛ لأنَّ عمل بقيَّة الجوارح يدخل في إطار ما سمع من منهج الله[1].

ثمَّ إنَّ العمل مفهوم من قوله تعالى: ﴿مُسْتَخْفٍ﴾، و﴿وَسَارِبٌ﴾، فذُكر القول مع العمل، وقُدِّم القولُ لكثرته، وخفَّة آلته، وهي اللّسان، ولعِظَم أثره فيمن بلَغه وإن لم يرَ قائله، علاوة على أنَّه متى أسرَّ القائل قوله في نفسه، فإنَّه يلحق بأعمال القلوب، وهكذا كان القول أعمَّ وأشمل ودالًّا على المطلوب.

نكتة التَّعبير بلفظ ﴿جَهَرَ﴾:

الجهرُ إعلانُ ما يُسمعُ والإظهارُ انكشافُ ما يُرى

تدور معاني الجهر حول الإعلان والانكشاف والبروز والعلوّ، ويضادُّه الإسرار[2]. أمّا الظُّهور؛ فتدور معانيه حول القوَّة والشِّدَّة والبروز بعد خفاء، ويضادُّه الخفاء والخمول[3].

ومن هنا تتبيَّن نكتة إيثار التَّعبير بلفظ ﴿جَهَرَ﴾، فهو الأنسب للقول، فملحظ السَّماع فيه أظهر، أمّا الظُّهور؛ فملحظ الرُّؤية فيه والغلبة والانكشاف لما كان مخفيًّا من مادي ومعنويٍّ أبرز؛ ولذلك عُبِّر بالجهر بالقول في مقابلة الإسرار به.

فنُّ الطِّباق بين الإسرار والجهر:

إحاطة علم الله بالموجودات عن طريق حصر الأحوال المُمكِنات

جيء بالطِّباق بين الإسرار والجهر، وهو طباق إيجاب؛ لتأكيد المعنى، وإثبات أنَّ الله تعالى قد أحاط بكل شيء علمًا، وذلك بطريق حصر الأحوال المُمكِنات؛ فإنَّ الإنسان يدور في كلامه بين إسرار وجهر، وهذان قد جاءت الآية ببيان أنَّ الله يعلمهما، وقد أوثر

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراوي: 12/7235.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (جهر).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ظهر).

فيهما أن يكون معمولهما هو القول؛ لانطباقه على الكلام الملفوظ والكلام النَّفسيّ، فإنَّ الله يعلمه أيضًا، ويعضّده قوله تعالى: ﴿وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى ۝٧﴾ [طه: 7]، فحصر بذلك أحوال البشر في حال كلامهم وسكوتهم؛ إذ هي لا تخرج عن ذلك.

معنى العطف في قولِه: ﴿وَمَنۡ هُوَ﴾:

عموم الحُكم المحيط لكلِّ ما ذُكر ممّا عُطِف بعضُه على بعض

في قولِه تعالى: ﴿وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ﴾، هذه الواو الَّتي عَطفت أسماء الموصول على الموصول الأوَّل للتَّقسيم هي بمعنى: (أو)[1]، وليست (أو) هنا للشَّكِّ أو للتَّخيير، بل هي (للتَّقسيم والتَّفصيل)[2]، فتكون النَّتيجة عموم الحكم (وهو هنا العلم المحيط) لكلِّ ما ذُكر.

الآيةُ ذكرت حالتيْن: الأولى: ﴿مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾، والأخرى: ﴿وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ﴾، فعُطفتِ الثّانية بكليّتها على الأولى بكليّتها، فالأولى سوَّت بين المُسرِّ والجاهرِ بالقول، والأخرى سوَّت بين المستخفِ والسّاربِ بالنَّهارِ، فالمعنى: أنَّ إسرارَكم وجهركم في حالةِ الكلامِ، واستخفاءكم وظهوركم في حالةِ الأفعالِ سواءٌ عند الله تعالى، فتكونَ الواو على هذا بمعنى التَّقسيم، فعطف القسم الآخر على القسم الأول، وقد جعل ابنُ عاشور رحمه الله الواوَ بمعنى (أو)[3].

نكتة التَّعبير في ﴿مُسۡتَخۡفِۭ﴾ و﴿وَسَارِبُۢ﴾:

ملازمة المُستخفي لخفائه، والسّارب لسُروبه

التَّعبير باسم الفاعل يدلُّ على تصوير الفعل[4]، وعلى شدَّة اتّصال الفعل بفاعله، ولخلوّه من الزَّمن، فقد دلَّ على الثَّبات والدَّيمومة، فلِشدَّة طلب المُستخفي للخفاء أمسى كالملازم له، ولمبالغة السّارب في الظُّهور أصبح كالمُلازم له.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/100.
(2) الشّاطبيّ، المقاصد الشّافية: 5/123.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/100.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2599.

والتَّنصيص على هذه الحالة تنبيه على رقابة اللّه في كلِّ مكان قد يظنُّ صاحبه أنَّه بتواريه عن أنظار النّاس، لا يطَّلع عليه أحد، ومعنى: ﴿وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ﴾؛ أيْ: ظاهرٌ ماشٍ في ضوء النَّهار، فإنَّ كليهما في علم اللّه على السَّواء[1].

معنى السّين والتّاء في ﴿مُسۡتَخۡفٍ﴾:

الاستخفاء هنا بمعنى الخفاء، فالسّين والتّاء للمبالغة في الفعل، مثل: استجاب[2]، فقوله ﴿مُسۡتَخۡفٍ﴾، أيْ: مبالِغ في الاختفاء كأنَّه مختفٍ باللَّيل وطالب للزيادة أشدَّ الطَّلب[3].

طلبُ الخفاء والمبالغةُ فيه لا تُغيِّب صاحبَها عن الله تعالى

وقيل: السين والتّاء للطَّلب، أيْ: هو طالب للاختفاء باللَّيل، فهو لا يكتفي بخفاء اللَّيل وظلمته، بل يطلب خفاءً آخر بأن يكون في كِنٍّ من الأرض مستورٍ لا يعلمه أحد[4]. فالحاصل أنَّه على كلا التَّأويلَيْن، فالمعنى هو المبالغة في التَّخفي.

معنى حرف الباء في ﴿بِٱلَّيۡلِ﴾ و﴿بِٱلنَّهَارِ﴾:

الباء هنا ظرفيَّة بمعنى (في)، فقوله تعالى: ﴿بِٱلنَّهَارِ﴾، أيْ: في النّهار[5]، وقوله تعالى: ﴿بِٱلَّيۡلِ﴾، أيْ: في أخفى الأوقات، فساربٌ أو كامنٌ فيه، يظنُّ أنَّ ذلك الاستخفاء يُغنيه من القدرة، ﴿وَسَارِبُۢ﴾، أيْ: ذاهبٌ على وجهه في الأرض ﴿بِٱلنَّهَارِ﴾، أيْ: مُتجاهر بسروبه فيه[6]، فهي تُشعِر بالانغماس الكامل في ظُلمة اللَّيل، والتَّجلُّل الباهر بنور النَّهار.

التصاق المُستخفِ والسّارِبِ بالزَّمنِ كلِّه بقصد الخفاءِ والظُّهور

والتَّعبيرُ بالباء عوضًا عن حرف (في) - فلم يَقُلْ: (مُستخف في اللَّيل وساربٌ في النَّهار) - لبيان شدَّة التصاق المُستخفِ والسّارب

(1) الزّحيليّ، التّفسير المنير: 13/122.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/99.
(3) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/291، والآلوسيّ، روح المعاني: 7/105.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3908.
(5) الهلال، تفسير القرآن النّريّ: 13/69.
(6) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/291.

بهذيْن الوقتيْن، فهو مُلازمٌ للَّيلِ كلِّه في الاستخفاءِ، كما أنَّه ملازمٌ للنَّهارِ كله في الظُّهور والانكشاف، فهي كنايةٌ عن شدَّة طلبه الخفاء والظُّهور.

براعة المقابلة في الآية:

الظّاهر والخفيُّ في علم الله سواءٌ وإحاطةُ الله بعبادِه شاملةٌ لجميعِ الأحوال

قوبل هاهنا بين ستَّة: (الإسرار، والجهر)، و(الاستخفاء، والسُّروب)، و(اللَّيل، والنَّهار).

ولقد ارتقت هذه المقابلة البديعة ذروة سنام البلاغة إذْ روعي فيها أن يجمع بين اللَّفظ وما يُناسبه ممّا يتعلَّق بمقابِله، حيث ذُكر الاستخفاء مع اللَّيل لكونه أشدَّ خفاء، وقوبل بذِكْر السُّروب مع النَّهار لكونه أشدَّ ظهورًا، والمعنى: أنَّ هذيْن الصِّنفيْن سواء لدى علم الله تعالى[1].

كما روعي أن يُقدَّم الخفيُّ على الظّاهر، وأنْ يُعطَف عليه ما يناسبه، حيث ذُكر الإسرار بالقول، وقوبل الجهر به، وذلك قُبَيل ذِكْر الاستخفاء والسُّروب، وتقديم الإسرار والخفاء لإثبات العلم بطريق الأوْلى، فإذا عَلِم سبحانه السِّرَّ؛ فهو للجهر أعلم، وإذا علم - تباركت أسماؤه - الخفاء؛ فهو للعلانية أعلم.

فالحاصل أنَّه لا تفاوت في علمه سبحانه بين الظّاهر والخفيّ، بل الجميع في علمه على سواء، إنَّما التَّفاوت يكون فيمن يكون علمه مبنيًّا على الحِسّ فيختلف عنده المحسوس عن غير المحسوس، وعِلمُ الله ﷻ ذاتيٌّ، كلُّ المعلومات عنده ﷻ على سواء، ولإشعار النّاس جميعًا بأنَّهم تحت سلطان علمه المحيط[2].

سرُّ التَّعبير بـ ﴿وَسَارِبٌ﴾ و﴿مُسْتَخْفٍ﴾:

على تباين الأحوالِ وتعارُضها فهي في علمِ الله سواء

تدور معاني (سرب) حول الاتِّساع والذَّهاب في الأرض[3]،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/99.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3908.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (سرب).

ويُضاف إلى ذلك أنَّ مجيئه على هذه الصيغة يُشير إلى نوع تجرُّؤ واقتحام، بخلاف ﴿مُسۡتَخۡفِۭ﴾ فتدلُّ صيغته على نوع تكلُّف وجهد.

ومن هنا يظهر سرُّ جمال الطِّباق بين ﴿وَسَارِبُۢ﴾، و﴿مُسۡتَخۡفِۭ﴾، فالأولى تدلُّ - بمعناها وصيغتها - على المبالغة في الظُّهور[1]، بينما تدلُّ الأخرى - بمعناها وصيغتها - على المبالغة في الخفاء.

والمعنى: يستوي في علم الله السِّرُّ والجهر المبالغ فيهما من النّاس، والظّاهر في الطُّرقات، والمستخفي في الظُّلمات، وهما اثنان قُصدت التَّسوية بينهما في اطِّلاع الله عليهما، مع تباين حالهما[2].

سرُّ الاكتفاء بلا إضافة (مَنْ هوَ):

حصر أحوال النّاس في الاستخفاء والظُّهور، وشمول علم الله تعالى بكلّ مذكور

ظاهر التَّقسيم في قوله: ﴿وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ يقتضي تكرار (مَنْ) لكنَّه حُذف للعلم به؛ إذ تقدَّم قوله: ﴿مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾؛ فلم يَقُلْ: (مَنْ أسرَّ القَوْلَ وجَهرَ بِهِ)، ويجوز أن يكون: ﴿وَسَارِبُۢ﴾، معطوفًا على ﴿مَّنۡ﴾ لا على ﴿مُسۡتَخۡفِۭ﴾، فيصحُّ التَّقسيم، كأنَّه قيل: سواءٌ شخص هو مستخفٍ بالليل، وشخص هو ساربٌ بالنهار، ويجوز أن يكون معطوفًا على ﴿مُسۡتَخۡفِۭ﴾، وأريدَ بـ ﴿مَّنۡ﴾ اثنان، والمعنى: سواء اللَّذان هما مستخفٍ باللَّيل والسّارب بالنَّهار.

وقيل: إنَّ المستخفي باللَّيل والسّارب بالنَّهار: صفتان لموصوف واحد، يستخفي باللَّيل، ويظهر بالنَّهار، ويعضِّد هذا كونه قال: ﴿وَسَارِبُۢ﴾، فعطفه عطف الصِّفات، ولم يَقل: (ومَن هو سارب) بتكرار (مَنْ)، كما قال: ﴿مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾، إلّا أنَّ جعْلهما اثنيْن أرجح؛ ليقابل ﴿مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾، فيكمل

(1) وقيل: ﴿وَسَارِبُۢ﴾ متوارٍ في سَرَب. ينظر: القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/290، وابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/485.

(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 2/290، وابن جُزَيّ، التّسهيل: 1/401.

التَّقسيم إلى أربعة على هذا، ويكون قوله: ﴿وَسَارِبٌ﴾ عطف على الجملة، وهو قوله: ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ﴾ لا على ﴿مُسْتَخْفٍ﴾ وحده[1].

فالحاصل أنَّ حذف (مَن هوَ) من جملة ﴿وَسَارِبٌ بِٱلنَّهَارِ﴾ قد أدَّى - مع اختصار العبارة - معنيَيْن كليهما صحيح، فإمّا أن يكون المقصود شخصيْن: أحدهما مستخفٍ باللَّيل، والآخر: ساربٌ بالنَّهار، وإمّا أن يكون المقصود شخصًا واحدًا يستخفي باللَّيل ويسرب بالنَّهار، وهذا من بلاغة النَّظم المُعجِز أن تؤدي عبارة واحدةٌ أكثر من معنى، وتكون كلُّ المعاني المُؤدّاة بهذه الألفاظ صحيحة ومقصودة.

فإنَّ هذه الآية - بتضمُّنها هذا الحذف المُشار إليه - قد حصرت أحوال النّاس في الاستخفاء والظُّهور، فكأنَّه نشأ عن هذا في الذِّهن تصوُّر لفريقيْن: أحدهما دأبُه الاستخفاء باللَّيل، والآخر دأبُه السُّروب بالنَّهار، وهذان الفريقان قد عُبِّر عنهما بعطف ﴿وَسَارِبٌ﴾ على (مَن)، أو بالموصول العامّ (مَنْ) الَّذي يعني - في هذا الموضع - اثنيْن أُجري عليهما الحكم بالسَّواء، أو بتقدير (مَنْ) قبل ﴿وَسَارِبٌ﴾ وبقاء المعنى، وهذا مذهب الكوفيين.

والقسمة العقليَّة تقتضي وجود فريق ثالث يستخفي تارةً، ويسرب تارةً، فكلا الأمريْن مُتحقِّقٌ فيه، فينشأ عن تصوُّر ذلك سؤالٌ: أين ذِكرُه في الآية؟

فتأتي الإجابة أيضًا من بلاغة الحذف، أيْ: حذف (ومَنْ هوَ)، ويكون التَّقدير: سِرُّ مَن أسرَّ، وجهر مَن جهر سواءٌ منكم[2].

أمّا سرُّ عدم حذف (مَنْ) في مقابلة الإسرار بالجهر في قوله تعالى: ﴿مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾؛ فإنَّه راجع إلى أنَّ مفعول فِعْلَي الجهر والإسرار واحد، وهو القول، فإمّا أنْ يُسَرَّ، وإمّا أن يُجهَرَ به، ولا يُتوجَّه للقول الواحد من الفاعل الواحد إسرار وجهر في الوقت ذاته، بخلاف الجملة الأخرى حيث ذُكر فيها ظرفان متغايران، أحدهما هو اللَّيل، والآخر هو النَّهار، ويصحُّ أن يُتوجَّه من الفاعل الواحد إسرار باللَّيل وجهر بالنَّهار.

(1) ابن جُزَيّ، التّسهيل: 1/401.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/290.

والنُّكتة في زيادة ﴿هُوَ﴾ في الأوَّل أنَّه الدّالُّ على كمال العلم، فناسب زيادة تحقيق، وهو النُّكتة في حذف الموصوف عن ﴿وَسَارِبٌ﴾ أيضًا، وهو الوجه في تقديم ﴿أَسَرَّ﴾ وإعماله في صريح القول على جهرِه وإعماله في ضميره[1].

فنُّ الطِّباق بين اللَّيل والنَّهار:

حصرُ الأوقاتِ تكميلٌ لحصر الأحوال

جيء بالطِّباق بين اللَّيل والنَّهار، وهو طباق إيجاب؛ لتأكيد المعنى، وإثبات شمول علم الله تعالى وإحاطته بكلِّ شيء، وذلك بطريق حصر الأوقات؛ ذلك أنَّ العمل (قولًا كان أو فعلًا) لا يخلو عن زمنٍ، والزَّمن لا يخلو عن نهار وليل.

وهذا من باب التَّفنُّن في التَّعبير عن المعنى؛ لأنَّه لمّا كان ذِكرُ الإسرار بالقول والجهر به حاصرًا لأحوال اللِّسان، ولمّا كان ذكرُ الاستخفاء باللَّيل والسُّروب بالنَّهار حاصرًا لأحوال الجوارح؛ جيء بما يحصر أحوال الزَّمن الَّذي هو ظرف للأعمال القوليَّة والفعليَّة.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيّةُ:

السرُّ والخفاء:

السرُّ أغْـوَر من الخفاء

السِّرُّ: إخفاء الشَّيء في النَّفس، ولو اختفى بستر أو وراء جدار لم يكن سرًّا، ويُقال: في هذا الكلام سرٌّ تشبيهًا بما يخفي في النَّفس، ويُقال: سِرّي عند فلان تريد ما يُخفيه في نفسه من ذلك، وتقول لصاحبك: هذا سرٌّ أُلقيه إليك، تريدُ المعنى الَّذي تخفيه في نفسك[2].

ويدور المعنى المحوريُّ لأصل السِّرِّ حول غُؤور إلى العمق بامتداد ودقَّة؛ ومن ذلك السِّرُّ يُكتَم كأنَّه أُخفيَ في الجوف بعمق، وأسَرَّ الشَّيءَ: كتَمَه[3].

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/105 - 106.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة: 2/63.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: 2/981 - 983.

والخَفاء: ما يُستر به كالغطاء، فيُقال: أخفيته؛ إذا أوليته خفاءً، أيْ: سترته[1]. ويدور المعنى المحوريُّ لأصل الخفاء حول استتار الشَّيء استتارًا ضعيفًا بحيث يظهر من وراء السّاتر ظهورًا ضعيفًا أيضًا[2].

القول والكلام والحديث:

القول أعـمُّ من الكلام والحديث

القول: كلُّ لفظ نطق به اللِّسان، تامًّا كان أو ناقصًا، فالقول قد لا يَتمُّ معناه إلا بغيره، ألا ترى أنَّك إذا قلت: قام وأخليته من ضمير؛ فإنَّه لا يَتمُّ معناه الَّذي وضع في الكلام عليه وله؟ لأنَّه إنَّما وُضِع على أن يُفاد معناه مقترنًا بما يُسند إليه من الفاعل، وقام هذه نفسها قول، وهي ناقصة محتاجة إلى الفاعل، وليس كذلك الكلام؛ لأنَّه وضع على الاستقلال والاستغناء عمّا سواه[3]. ومن أدلِّ الدَّليل على الفرق بين الكلام والقول: إجماعُ النّاس على أن يقولوا: القرآن كلام اللّه، ولا يقولوا القرآن قول اللّه، وذلك أنَّ هذا موضعٌ ضيِّق متحجِّر لا يمكن تحريفه، ولا يسوغ تبديل شيء من حروفه، فعُبِّر لذلك عنه بالكلام الَّذي لا يكون إلّا أصواتًا تامَّةً مفيدة[4].

والقول يُستعمَل في المتصوَّر في النَّفس قبل الإبراز في اللَّفظ، ومنه: في نفس فلانٍ قول لم يبرزه، وعليه قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُۚ﴾ [المجادلة: 8][5].

والحديث: هو الخبر يكشف عمّا في النَّفس[6]، ويَلزم ذلك تمامُ المعنى، ويلزمه كذلك انتفاءُ الإسرار عما كُشِف.

ولأنَّ القولَ الصَّوتيَّ دلالة على معنًى في النَّفس استُعمِل لفظه في

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 289، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحُفّاظ: 1/518.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: 1/582.
(3) ابن منظور، لسان العرب: (قول).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (كلم).
(5) السّمين الحلبيّ، عمدة الحُفّاظ: 3/350.
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: 1/390.

إشارة غير الصَّوت إلى معنًى، نحو: وقالت له العينان: سمعًا وطاعة، والعرب تجعل القول عبارة عن جميع الأفعال، أيْ: تُعبِّر به عنها، وتُطلقه على غير الكلام واللِّسان؛ فتقول: قال بيده، أيْ: أخذ، وقال برجله، أيْ: مشى[1].

فإذا أسرَّ الإنسانُ قولًا في نفسه، أو أسرَّ به إلى أحدٍ من البشر، فأبهمَ فيه، أو جعله ناقصًا عمّا هو مخبوء في نفسه، أو جعله تامًّا مُخبِرًا كاشفًا عمّا فيها، أو خانه لسانُه عند الإسرار به، فلم يُفصح، أو أشار إليه إشارةً سِرّيَّةً؛ كان ذلك كلُّه معلومًا عند اللّٰه ﷻ، لا يَخفَى عليه مكتومٌ ولا مُرادٌ ولا شيء.

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: 4/1825، وابن منظور، لسان العرب: (قول).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث والعشرون، سورة يوسف من الآية 56 إلى سورة الرّعد الآية 15
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثالث والعشرون، سورة يوسف من الآية 56 إلى سورة الرّعد الآية 15
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 23 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-20-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 23 : المجلد الثالث والعشرون، سورة يوسف من الآية 56 إلى سورة الرّعد الآية 15.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-20-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-8086351 بتاريخ 2024/02/16م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»